

## الفصل السادس والعشرون

الغزلون: ١ كثير

وإنما أعده في الغزلين لأخرجه منهم، فالناس يُجمعون أو يكادون يجمعون على أنه أحد الغزلين الذين أتاحت لهم الإجابة، وقسم لهم التفوق في الغزل، وهم يقرنون اسمه باسم جميل فيقولون: كثير عزة، كما يقولون: جميل بثينة، وكما يقولون: مجنون ليلى، وهم بهذا نفسه يقدمونه على ابن ذريح، ويقدمونه على الأحوص والعرجي وغيرهما من أصحاب الغزل في بادية الحجاز وحاضرته، والرواة لا يكتفون بهذا بل يقدمونه على الشعراء عامة ويضعونه بين الفحول، فهو مقدم على ابن أبي ربيعة، وهو في مرتبة الفرزدق والأخطل وجرير والراعي، ولست أدري أكان الرواة منصفين في وضعه بين هؤلاء الفحول، وتقديمه على عامة شعراء العصر الأموي؟ وليس سبيل إلى الفصل في ذلك؛ فقد ضاع شعر كُتِّبَ كله ولم يبقَ منه إلا الشيء القليل جدًا، لم يبقَ منه إلا أبيات ومقطوعات لا تبيح الحكم له ولا عليه، وإذن فقد يكون شاعرًا فحلًا، وقد يصح أن يقرن إلى الفرزدق وإلى جرير، ولكن شيئًا لا يقبل الشك، هو أنه ليس من الغزلين المتقدمين، ولا يصح أن يقرن إلى جميل، ولا أن يقاس بابن أبي ربيعة. ولا أن يقدم على ابن ذريح.

١ نُشرت بجريدة «السياسة» في ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٤.

ليس هو من هؤلاء كلهم في شيء، وإذا كان له أن يتقدم أو أن يظفر بمكانة عالية بين الشعراء فلا ينبغي أن يكون ذلك لغزله، وإنما ينبغي أن يكون ذلك لشيء آخر قد يتاح لنا أن نعرفه بعد حين.

ستقول: وإذا لم يكن من الغزلين فلم أضفته إليهم وحشرته فيهم؟ وقد أجبك على هذا السؤال في أول هذا الحديث، فقلت: إني أعده في الغزلين لأخرجه منهم، وهل تظن أن الناس يقبلون بحثًا تناول الغزلين جميعًا وسكت عن كثير، وهم كما قلت لك مجمعون على أنه غزلٌ مقدم بارع في الغزل! أليس من الحق على من يبحث عن الغزلين ويستقصيهم أن يزيل هذا الوهم ويمحو آثاره من نفوس الناس؟!

كل شيء في حياة كثير يدلنا على أنه لم يكن غزلًا بطبعه، ولم يكن ماهرًا ولا موفقًا في تكلف الغزل، فهو لم يكن صافي الطبع ولا رقيق الحس ولا دقيق الشعور ولا قوي العاطفة ولا ذكي الفؤاد، وإنما كان بريئًا من هذا كله، وهو لم يكن على براءته من هذه الخصال حسن الخلق ولا مقبول الصورة، وإنما كان دميمًا قبيحًا بشع المنظر مضحكًا لمن يراه، مضحكًا لمن يسمعه ويتحدث إليه أيضًا، كان قصيرًا مسرفًا في القصر، حتى قال بعض الرواة: «لقد رأيتَه يطوف بالكعبة فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فقد كذب». وكان أحقق مسرفًا في الحمق ضعيف العقل إلى حد غريب، كان الناس يتخذونه هزؤًا وسخرية، والغريب من أمره أنه لم يكن يحس هذا الاستهزاء ولا يشعر بهذه السخرية، وإنما كان يصدق كل ما يلقي إليه، ويسمع المزاح فيجيب إليه جادًا مقتنعًا. زعموا أن نفرًا من قريش دخلوا عليه يعودونه وكان مريضًا فسألهم: بِمَ يتحدث الناس؟ قالوا: يتحدثون بأنك الدجال، قال: أما إذ قلتُم هذا فإنني لأجد في عيني هذه المأ منذ أيام، والدجال في الأساطير أعور.

وأشد من هذا غرابة أن أمر كثير لم يكن مقصورًا على الغفلة والحمق، وإنما كان يتجاوزهما إلى التيه والخيلاء، فالرواة يحدثوننا أنه كان من أشد الناس إعجابًا بنفسه ومن أغلامهم في الكبرياء، حتى لقد اتخذه معاصروه ولا سيما أهل المدينة سخرية في هذا أيضًا، فكانوا يتبعونه في شوارع المدينة يشتمونه وينالون منه، لعله يلتفت إليهم فلا يفعل، وربما غلوا في ذلك فيمد الرجل منهم يده إلى رداء كثير فينتزعه، فلا يلتفت إليه كثير بل يمضي في قميص، وكان إلى هذا كله يرى في نفسه الذكاء والفتنة، وربما رأى فيها القوة والبأس أيضًا، وقد حفظ الرواة لنا من هذا أخبارًا مضحكة.

زعموا أنه لقي الشاعر المعروف بالحزين فكان بينهما مزاح بدأه كثير حين قال للحزين: لست شاعرًا وإنما أنت نظام! فاستأذنه الحزين في أن يهجو، فأذن له ساخرًا

منه مزدريًا له، فهجاه الحزين ببيت لا نستطيع أن نرويه، فلم يكد يسمع هذا البيت حتى أخذته حفيظة منكرة، فنهض إلى الحزين فلكزه، ولكن الحزين قال له: لست من هذا في شيء، ثم مال إليه فرفعه في يده فإذا هو فيها كالكرة حتى خلص بينهما من حضر.

ومع هذا كله فليس من شك في أن كثيرًا قد كان شاعرًا مجيدًا، بل عظيم الحظ جدًّا من الإجابة، وما أظن أن محمد بن سلام الجمحي قرنه إلى الفرزدق وجريير تحكمًا أو عبثًا.

وقد حدثنا الرواة أنهم كانوا يحفظون له شعرًا كثيرًا، ويذكرون بنوع خاص ثلاثين لامية لم يبقَ لنا منها إلا أبيات تكاد أو لا تكاد تؤلف قصيدته المشهورة التي مطلعها:

خَلِيلِيَّ هَذَا رُبْعَ عَزَّةٍ فَاغْقِلَا      قَلُوصَيْكُمَا تُمْ أَبِكِيَا حَيْثُ حَلْتِ

وكان أبو عبيدة فيما ذكروا يملي شعر كثير بثلاثين دينارًا، ولكننا سنرى أن إجادته ومنزلته بين الشعراء لم تأتياه من الغزل، وإنما وفق إليهما من سبيل السياسة والتقرب إلى الملوك والخلفاء.

كان كثير أصغر نفسًا وأردأ طبعًا وأشد حمقًا وغفلة من أن يتأثر بتلك المؤثرات المختلفة التي فصلناها في الأحاديث الماضية والتي كونت الغزلين من أهل الحاضرة والبادية في الحجاز، لم يكن كبير النفس، ولم يكن له أمل في الحياة السياسية العامة، ولا طمع فيما كان يطمع فيه شباب الحجاز من رفعة وسلطان، بل ربما كان من الحق أن نسأل أنفسنا قبل كل شيء: من كثير؟ وإلى أي قبيلة من قبائل العرب ينتمي؟ فقد يظهر أن كثيرًا نفسه لم يكن يعرف من هذا شيئًا، أو لم يكن يريد أن يعرف من هذا شيئًا، أو كان يريد أن يعرف منه أكثر مما ينبغي أن يعرفه صاحب النسب الصحيح.

كان ينتسب في اليمن خزاعيًا، وكان ينسب في مضر كنانيًا، وكان اليمانيون والمضربون ينفونه ويزدرونه ويسخرون منه، وإذن فكيف يطمع في رفعة المنزلة وعلو المكانة؟! وكيف يقرن بهذا الشباب الأرسقراطي الحجازي الذي عبث به الطمع واليأس فاضطراه إلى اللهو والعبث واصطناع الغزل والغناء، ثم لم يكن كثيرًا من هؤلاء البدو الذين وصفنا حياتهم غير مرة، والذين قلنا: إن إهمال الدولة إياهم قد اضطهرهم إلى أن يعكفوا على أنفسهم ويفرغوا لحياتهم البدوية، فنشأ عن ذلك ما كانوا فيه من حزن

خالط نفوسهم وصرف شبابهم إلى هذا الحب البريء وهذا الغزل العفيف، اللذين ليسا في حقيقة الأمر إلا مرآة لما كانوا يطمعون فيه، ويطمحون إليه من المثل الأعلى. ليس كثير من أولئك ولا من هؤلاء، ليس بدويًا خالصًا، وليس حضريًا ذا مكانة في الحضر، وإنما كان يتردد بين البادية والحاضرة، كان شديد الاتصال بقصر دمشق يمدح بني أمية ويتملقهم ويأخذ جوائزهم، وكان كاذبًا أحسن الكذب في هذا المدح والتملق، وكان بنو أمية يعلمون منه ذلك، كان يتردد بين مكة والمدينة، يعاشر أشرفهما، ويأخذ منهم ما أتيح له من جائزة أو عطاء.

كان ذا مذهب سياسي، أو قل كان له مذهبان متناقضان أشد التناقض، يرجعان آخر الأمر إلى مذهب واحد معروف في ذلك الوقت هو النفاق السياسي، كان فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين الله متشيعًا غالبًا في التشيع يرى مذهب الكيسانية، ويقدم محمد ابن الحنفية ويؤمن بالرجعة، وله في ذلك أعاجيب وشعر جيد، وكان فيما بينه وبين الناس نصيرًا لبني أمية يمدحهم ويغلو في مدحهم ويعاشرهم ويفاخر بعشرتهم.

ولم يكن التوفيق بين هذين المذهبين المتناقضين عليه شاقًا ولا عسيرًا، فهو حين كان يمدح بني هاشم وبني أمية كان يخاصم الزبيريين الذين كانوا أعداء للأمويين والهاشميين معًا، ولعلك تذكر أنني حدثتك في الصيف الماضي عن شاعر عباسي مسرف في التشيع، كان يذهب مذهب كثير نفسه، كان كيسانيًا يقدم ابن الحنفية ويؤمن بالرجعة، وكان مع ذلك يمدح بني العباس ويأخذ جوائزهم، وكان بنو العباس يغضون له عن تشييعه للعلويين، كما كان بنو أمية يغضون لكثير عن تشييعه للعلويين أيضًا، هذا الشاعر هو السيد الحميري الذي كان كثيرًا يتقرب ببني هاشم إلى الله، ويرضي بمدحهم عاطفته الدينية، ويتقرب ببني العباس إلى الدنيا ويرضي بهم حاجته إلى اللذة والثروة.

وكما أن كثيرًا كان يتخذ ابن الزبير وسيلة إلى إرضاء الهاشميين والأمويين؛ لأنه كان خصمًا مشتركًا للحزبين؛ فقد كان السيد الحميري يتخذ بني أمية وسيلة لإرضاء بني علي وبني العباس، وكما أن كثيرًا كان أحقق مغفلًا مسرفًا في الإيمان بالسخر والاطمئنان إليه، فلم يكن حظ السيد الحميري من الحمق والغفلة وضعف العقل قليلًا، حتى إن الرواة ليضيفون إلى كثير شعر السيد، كما يضيفون إلى السيد شعر كثير، بل هما يشتركان في شيء آخر؛ كلاهما كان سيئ الصلة بأبويه، فقد يحدثنا الرواة أن السيد ولد لأبوين من الخوارج الغلاة في مذهب الخوارج، فكان كارهاً لهما مسيئًا إليهما، وهم يحدثونا أيضًا أن كثيرًا كان يعق أباه ويسيء إليه.

وهما يكاد يشتركان في خصلة أخرى! لكنها أقوى عند كثير منها عند السيد: كلاهما كان منفراً صارفاً للنساء، أما كثير فلقبه ودمامته وقصره، وأما السيد فلنتن إبطيه. ولعلك تذكر ما رويت لك من شعر الحميري في الرجعة، وأنا أروي لك الآن شيئاً من شعر كثير فيها، فانظر إلى هذه الأبيات الجيدة التي يتعجل بها عودة ابن الحنفية إلى الأرض ليرفع فيها لواء بني هاشم:

أَطَلْتُ بِذَلِكَ الْجَبَلِ الْمُقَامَا	أَلَا قُلْ لِلْوَصِيِّ فِدَتَكَ نَفْسِي
وَسَمَّوكَ الْخَلِيفَةَ وَالْإِمَامَا	أَضْرَّ بِمَعْشَرِ الْوُكِّ مَنَّا
مُقَامُكَ عَنْهُمْ سَتِينَ عَامَا	وَعَادُوا فِيكَ أَهْلَ الْأَرْضِ طَرًّا
وَلَا وَارَتْ لَهُ أَرْضُ عِظَامَا	وَمَا ذَاقَ ابْنُ حَوَلَةَ طَعْمَ مَوْتٍ
تَرَاجَعُهُ الْمَلَائِكَةُ الْكَلَامَا	لَقَدْ أَوْفَى بِمُورِقِ شَعْبِ رِضْوَى
وَأَنْدِيَّةٌ تُحَدِّثُهُ كِرَامَا	وَإِنَّ لَهُ بِهِ لِمَقِيلٍ صِدْقٍ
بِهِ وَلَدَيْهِ نَلْتَمِسُ التَّمَامَا	هَذَا اللَّهُ إِذْ جُزْتُمْ لِأَمْرٍ
تَرَوْا رَايَاتِنَا تَتْرَى نِظَامَا	تِمَامَ مَوَدَةِ الْمَهْدِيِّ حَتَّى

ولعلك تلاحظ معي أن غياب محمد ابن الحنفية إن كان قد أضر بقوم فليس «كثير» من هؤلاء القوم؛ فهو لم يعاد فيه أهل الأرض طرّاً كما يقول، وإنما عادى فيه عبد الله بن الزبير وحزبه ليس غير.

وانظر إلى هذه الأبيات التي يدافع فيها عن محمد ابن الحنفية حين حبسه ابن الزبير، وأراد تحريق بني هاشم، وهي من جيد الشعر السياسي:

مِنَ النَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ ظَالِمٍ	مَنْ يَرِ هَذَا الشَّيْخَ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنِي
وَفَكَكَ أَغْلَالٍ وَنَفَّاعُ غَارِمٍ	سَمِيِّ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَابْنُ عَمِهِ
وَلَا يَتَّقِي فِي اللَّهِ لَوْمَةً لِائِمٍ	أَبِي فَهُوَ لَا يَشْرِي هُدَى بِضَلَالَةٍ
حُلُولًا بِهِذَا الْخَيْفِ خَيْفِ الْمَحَارِمِ	وَنَحْنُ بِحَمْدِ اللَّهِ نَتْلُو كِتَابَهُ
وَحَيْثُ الْعَدُوُّ كَالصِّدِيقِ الْمُسَالِمِ	بِحَيْثُ الْحَمَامِ آمِنُ الرُّوعِ سَاكِنُ
وَلَا شِدَّةُ الْبُلُوَى بِضَرْبَةٍ لِزِمٍ	فَمَا فَرِحَ الدُّنْيَا بِبَاقِ لِأَهْلِهِ
بِلِ الْعَائِدِ الْمَظْلُومِ فِي سَجْنِ عَارِمٍ	تُخَبِّرُ مَنْ لَاقِيَتْ أَنَّكَ عَائِدٌ

وكان ابن الزبير يسمى العائذ، ويزعم أنه يعود بالبيت وحرمه.

وانظر إلى هذه الأبيات التي اختلف الرواة فيها فأضافها بعضهم إلى السيد، وأضافها بعضهم الآخر إلى كثير، وهي أبيات مشهورة تخص مذهب الكيسانية في الإمامة:

وَلَاةُ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءٌ	أَلَا إِنَّ الْأَثْمَةَ مِنْ قُرَيْشٍ
هُمُ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ لَهُمْ حَفَاءٌ	عَلِيٌّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ
وَسَبْطُ غَيْبَتِهِ كَرِبَلَاءُ	فَسَبْطُ سَبْطِ إِيْمَانٍ وَبِرٍّ
يَقُودُ الْخَيْلَ يَتْبَعُهَا اللَّوَاءُ	وَسَبْطٌ لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ حَتَّى
بِرْضَوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءٌ	تَغِيَّبٌ لَا يُرَى عَنْهُمْ زَمَانًا

وانظر إلى هذه الأبيات يفخر بها بتلطف ابن الحنفية به وعطفه عليه وسؤاله عنه:

أَمِينُ اللَّهِ يَلْطَفُ فِي السُّؤَالِ	أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنِي إِذْ دَعَانِي
وَسَاءَلَ عَن بَنِيَّ وَكَيْفَ حَالِي	وَأَتْنَى فِي هَوَايَ عَلِيَّ خَيْرًا
وَزَلَّةَ فَعَلِهِ عِنْدَ السُّؤَالِ	وَكَيفَ نَكَّرْتُ حَالَ أَبِي خَبِيْبٍ
أَخُو الْأَخْبَارِ فِي الْحَقْبِ الْخَوَالِي	هُوَ الْمَهْدِيُّ خَبْرِنَاهُ كَغَبٍّ

وأبو خبيب هذا هو عبد الله بن الزبير، وليس من شك في أن محمد ابن الحنفية كان يحمده لكثير نضاله عنه وهجاءه لابن الزبير، ولكن البيت الأخير من هذه المقطوعة يلفتنا بنوع خاص؛ لأنه يمثل عقلية كثير وأمثاله من غلاة الشيعة الذين كانوا صادقين في غلوهم يستبشرون فيه الكذب ويعتقدون مع ذلك أنهم لا يكذبون، ذلك أن كثيرًا لم يلق كعب الأخبار، ولا يمكن أن يكون كعب قد خبره بما ذكر من أن ابن الحنفية هو المهدي، وقد سأله بعض معاصريه: أخبرك كعب حقًا؟ قال: لا، قال محدثه: وإذن فكيف قلت ما قلت؟ أجاب: بالتوهم، وكذلك كان السيد الحميري يتلمس الفرص وينتقلها إذا لم يجدها، ليذيع فضل بني هاشم ويثبت حقهم في الإمامة.

على أن شيئًا واحدًا يعنيننا من أمر كثير مع بني هاشم، وهو أنه كان صادقًا في حبه، وكان ساذجًا في هذا الحب أيضًا، وكان هذا الحب الصادق الساذج ينتهي به أحيانًا إلى شيء من الحنان مؤثر شديد التأثير، وينتهي به أحيانًا إلى شيء من الغفلة مضحك شديد الإضحاك، كان شديد العطف على أطفال بني هاشم يسميهم: الأنبياء الصغار، ويقول كلما رآهم: بنفسى الأنبياء الصغار! وكان يأخذ عطاءه فيمر بالكتاب حيث كان أطفال بني هاشم فيهب لهم الدراهم.

وقال الرواة: وكان مع هؤلاء الأطفال صبي من ولد عثمان، وكان أبا هؤلاء الأطفال الهاشميين لأمهم، وكان يختلف معهم إلى الكتاب، وكان إذا رأى كثير يفرق الدراهم على إخوته تعلق به وقال يا عم: هب لي، فيجيبه: لا، لست من الشجرة.

قلت: إن هذا الحب الصادق الساذج لبني هاشم كان ينتهي بكثيرٍ إلى الغفلة أحياناً، وكان بنو هاشم يعلمون من كثير وغيره من شيعتهم صدق هذا الحب، وسذاجته فلا يحجمون عن استغلاله والانتفاع به.

ويحدثنا الرواة أن أبا هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية كان يعلم من كثير من هذه السذاجة ويريد أن يمسه فيها ويحتفظ بسلطانه عليه، فكان يكلف أرساداً من أصحابه أن يرقبوا كثيراً وينقلوا إليه مختلف أمره، فإذا حضر كثير مجلسهم قال له: قلت كذا وكذا، وفعلت كيت وكيت، فيبهر كثير، حتى قال له ذات يوم: أشهد أنك رسول الله.

كان بنو هاشم يستغلون حب كثير، ويقبلون منه نفاقه ومدحه لبني أمية، ولم لا؟! ألم يك بنو هاشم أنفسهم يدارون بني أمية ويسالمونهم ما عجزوا عن مناوأتهم وإشهار الحرب عليهم! ثم أي الأحزاب السياسية يستطيع أن يستغني في أي عصر من العصور عن هؤلاء المنافقين السياسيين الذين أتاحت لهم السنة طوال وأخلاق مرنة، فهم ينتفعون وينفعون.

ولهذا كان بنو أمية يصنعون مع كثيرٍ صنيع بني هاشم، فيقبلون منه نفاقه السياسي ويقرونه عليه، وكانوا يعلمون حق العلم أنه ليس صادقاً في مدحهم ولا مخلصاً في الدفاع عنهم، وكانوا مع ذلك يجيزونه ويقربونه ويستزيرونه مدحه، ويذيعون هذا المدح في القصر وفي دمشق وفي العراق حيث كان خصومهم السياسيون بنوع خاص. وهذه الحادثة تعطيك صورة من المداراة السياسية وحرص الزعماء السياسيين المهرة على استغلال النفاق السياسي.

قالوا: لما خرج عبد الملك لحرب مصعب بن الزبير، لحظ في عسكره «كثيراً» يمشي مطرماً وكأنه حزين، فدعاه فسأله: أتصدقني إن أنبأتك بما في نفسك؟ قال: نعم! قال: فاحلف بأبي تراب: فحلف كثيرٌ بالله ليصدقنه! قال عبد الملك: لا بد من أن تحلف بأبي تراب، فحلف له بأبي تراب، قال عبد الملك: تقول في نفسك: رجلان من قريش يلقي أحدهما الآخر لحربه فيقتله والقاتل والمقتول في النار، وما آمن أن يصيبني سهم فيقتلني فأكون معهما، قال كثيرٌ: ما أخطأت يا أمير المؤمنين، قال عبد الملك: فعد من قريب، وأمر

له بجائزة، وكان عبد الملك إذا أراد الصدق من كثير في أمر من الأمور لا يرضى منه إلا أن يحلف بأبي تراب.

إذن فقد كان كثير لا يخفي على بني أمية تشييعه للهاشميين، وكان مع ذلك يمدحهم ويأخذ جوائزهم؛ أي إنه كان يأجر نفسه من خصومه السياسيين وكان خصومه السياسيون يقبلون منه هذا فرحين به مبتهجين له، ومن ذا الذي لا يبتهج بأن يرى خصمه السياسي يهين نفسه ويذلها فيمدحه ويقدمه رغبة في المال؟! وكذلك كانت صلة السيد الحميري بالعباسيين.

أظنك الآن قد استطعت أن تتمثل شخصية كثير، وما هي بالشخصية الجذابة ولا التي تستهوي النفوس وتستثير العطف.

وإذا كان كثير بغيضاً إلى هذا الحد؛ فليس من السهل ولا من اليسير أن يستهوي النساء ويستصبيهن، وقد برأه الله من جمال الصورة كما برأه من جمال الأخلاق، ومن هنا لا أميل إلى تصديق ما يرويه الرواة من أن نساء المدينة احتفلن بكثير يوم مات، فإن كنَّ قد فعلن شيئاً من هذا، فما أظن مصدر ذلك إلا أن كثيراً كان شاعراً ممتازاً وكان يذكر النساء فيحسن ذكرهن، وأظن أن قد أن لنا أن نذكر شيئاً عن حب كثير.

فأول شيء نذكره أن كثيراً كان كاذباً في حبه، كما أنه كان كاذباً في نسبه، وكما أنه كان كاذباً في موقفه السياسي، وأنا أعتقد أن كثيراً رأى شعر الغزلين وكلف الناس به فتعاطى هذا الفن كما تعاطاه الغزلون، تمريناً لقوته الشعرية، وقلنا: كان كثير مغروراً تياهاً، كان — كما يقول الجاحظ — قصيراً ويزعم أنه طويل، دميماً ويرى أنه جميل، وقد رأى البدع في أيامه عند أهل الحجاز أن تكون لكل شاعر خلية يذكرها ويهيم بحبها، فأراد أن تكون له كغيره من الشعراء خلية، فذكر عزة، وأكثر من الهيام بها، والرواة أنفسهم يقولون: إن كثيراً كان مدعيًا للعشق لا عاشقاً، ويروون في ذلك أحاديث تجدها في الأغاني، ولست أستطيع أن أقول: إن هذه الأحاديث صحيحة أو غير صحيحة، ولكنني أتخذها دليلاً على أن حب كثير لم يخدع الناس قديماً فلا ينبغي أن يخدعنا الآن. ليس من الحق إذن أن نقرنه إلى جميل ولا إلى ابن ذريح، ولا أن نقدمه على أحد من هؤلاء الغزلين، بل ليس من الحق أن نعهده غزلاً، وإنما هو شاعر أراد أن يكون غزلاً فعالج الغزل معالجة فنية خالصة، ولعله إن لم يوفق في تكلف الحب وفق في تكلف الغزل، ولكننا لا نستطيع أن نقبل ذلك ولا أن نرفضه؛ لأن ما لدينا من غزل «كثير» أقل من أن يبيح لنا ذلك، ومع هذا فإني أختتم هذا الحديث بهذه الأبيات التي تكاد تكون

وحدها كل ما بقي من غزل كثير، وأنا أرى أن فيها من جودة اللفظ ورياسة الأسلوب شيئاً كثيراً، ولكنها خالية خلواً تماماً من صدق اللهجة وحرارة العاطفة:

خَلِيلِي هَذَا رَسْمٌ عَزَّةَ فَاعْقِلَا  
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ عَزَّةَ مَا الْبُكَاءُ  
فَلَيْتَ قَلُوصِي عِنْدَ عَزَّةَ قِيدَتِ  
وَأَصْبَحَ فِي الْقَوْمِ الْمُقِيمِينَ رَحْلَهَا  
فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزُّ كُلُّ مُصِيبَةٍ  
أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ  
يَكْلِفُهَا الْغَيْرَانُ شَتْمِي وَمَا بِهَا  
هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مَخَامِرِ  
تَمَنِّيْتُهَا حَتَّى إِذَا مَا رَأَيْتَهَا  
كَأَنِّي أَنَادِي صَخْرَةَ حِينَ أُعْرَضْتَ  
صَفُوحًا فَمَا تَلْقَاكَ إِلَّا بِخَيْلَةٍ  
وَإِنِّي وَتَهْيَامِي بِعَزَّةَ بَعْدَ مَا  
لَكَالْمُرْتَجِي ظِلَّ الْغَمَامَةِ كُلَّمَا

قَلُوصِيكَمَا ثُمَّ ابْكِيَا حَيْثُ حَلَّتِ  
وَلَا مَوْجِعَاتِ الْقَلْبِ حَتَّى تَوَلَّتِ  
بِحَبْلِ ضَعِيفٍ بَانَ مِنْهَا فَضَلَّتِ  
وَكَانَ لَهَا بَاغٍ سِوَايَ فَبَلَّتِ  
إِذَا وَطَّنتُ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتِ  
لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتِ  
هُوَانِي وَلَكِنْ لِلْمَلِكِ اسْتَدَلَّتِ  
لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ  
رَأَيْتُ الْمَنَايَا شَرَعًا قَدْ أَظَلَّتِ  
مِنَ الصَّمِّ لَوْ تَمْشِي بِهَا الْعُصْمُ رَلَّتِ  
فَمَنْ مَلَ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلَ مَلَّتِ  
تَحَلَّيْتُ مِمَّا بَيْنَنَا وَتَحَلَّتِ  
تَبَوَّأَ مِنْهَا لِلْمَقِيلِ اضْمَحَلَّتِ